

التقسيم إلى نظري وعملي :

العلوم كثيرة ، وشهوات الناس لها مختلفة . وهي تنقسم - مما تنقسم - إلى قسمين :

١ - قسم نظري .

٢ - وقسم عملي .

فالنظري هو الذي الغاية منه حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الانسان . وغايته الحق .

والمقصود منه إنما هو حصول رأى فقط . فأنت حينما تحاول إثبات الواجب وما يليق به . أو حينما تحاول إثبات الجواهر الروحانية ، أو حينما تبين ارتباطات الأمور الأرضية بالقوة السماوية إنما تقصد من وراء ذلك أن تحصل لنفسك على رأى توسع به أفق ثقافتك . وتسمى علومًا نظرية لأن المقصود منها تكميل القوة النظرية ، أو لأن النظريات فيها أكثر وأقوى من العملية .

والعلوم النظرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم لا يفتقر في الوجود الخارجى والتعقل إلى المادة وهو الآلهيات

٢ - وقسم يفتقر إلى المادة في الوجود الخارجى دون التعقل وهو الرياضيات .

٣ - وقسم يفتقر إليها في الوجود الخارجى والتعقل وهو الطبيعيات

كالعلم بأحوال الأمور العامة للأجسام ، أو كالعلم بأحوال المعادن ، أو غير ذلك مما يبحث فيه هذا العلم الطبيعى .

و القسم العملى هو الذى ليس الغاية منه حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات بل المقصود منه إنما هو حصول رأى فى أمر يحصل بكسب الإنسان ليكتسب ما هو الخير منه . فلا يكون المقصود منه هو حصول رأى فقط كالنظرى بل المقصود هو حصول رأى لأجل عمل . وغاية هذا القسم العملى هو الخير . وهذا القسم العملى ينقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام :

١ — علم بمصالح شخص بانفراده ليتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل وهو علم الأخلاق .

٢ — وعلم بمصالح جماعة متشاركة فى المنزل ويسمى علم تدبير المنزل .

٣ — وعلم بمصالح جماعة متشاركة فى المدينة وهو علم السياسة .

وعلم الأخلاق كما يقول « أرسطو طاليس » يتضمن هذه الثلاثة . وبعد : فهل علم الأخلاق ينتسب إلى القسم العملى فحسب . أو أنه ينتسب إلى العملى من ناحية وإلى النظرى من ناحية أخرى ؟

عرفنا أن غاية القسم النظرى الحق ، وغاية العملى الخير . ولما كان علم الأخلاق يبحث فى الحق كما يبحث فى الخير . كان له نسب إليهما معاً . فهو علم نظرى حينما يبحث الحق ، وهو علم عملى حينما يوجهك إلى الخير . وعلم الأخلاق يجمع بموضوعاته بين اللذة والفائدة : اللذة حين يفسر لك معنى الإنسان ، والفائدة حين يهديك إلى سواء السبيل .

إنه حين يفسر لك معنى الإنسان فيحدثك مثلاً عن القانون الذى هو فى ضميرك يناجى عقلك ، ويقول لك : « إن هذا القانون هو المبدأ الاسمى وفوق الإنسان ، وحين يحدثك عن الإرادة الحرة التى تنفذ هذا القانون

أو تخالفه ويقول لك : « إن هذه هي المبدأ الإنساني والتابع » إنه حين يحدثك هن هذين المبدأين . ويقول لك : « هما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه » إنما يحدثك عن الحق .

وإنه يهديك إلى سواء السبيل حين يقول لك « إن قانون الأخلاق الذي لا يحرمك من الثروة التي هي ثمرة عادية تستحقها بعملك ، والذي لا يحرمك من اللذة وهي حاجة طبيعية لك ، والذي لا يحرمك من السعادة التي هي رائد جميع مجهوداتك . إنه يهديك حين يقول لك : « يجب عليك في بعض الحالات أن تضحي للخير بكل هذا : بالثروة ، وباللذة ، وبالسعادة ، بل بالحياة ذاتها .

فما ينبغي أن تضحي الحياه ابتغاء لوسائل الحياة ، فالحياة عدل وكرامة « وقيمة الكرامة أغلى من قيمة الحياة » .

إن علم الأخلاق علم نظري من ناحية عملي من ناحية أخرى : نظري حين يحدثك مثلاً عن الضمير فيقول لك : إنك تحمل في نفسك قانوناً ومحكمة بوجه ما تحكم ببراءتك ، أو بأدانتك بحسب الأحوال ، ولها من القوة التنفيذية إما الرضا الجميل بأنك عملت خيراً ، وإما الندم ووخز الضمير على كونك عملت شراً .

وإنه علم نظري حين يحدثك عن هذه القوة وعن أنها ليست من وضعك أيها الإنسان ما دمت غير قادر على تغييرها على رغم وحى المنافع وعمايات الشهوات .

إنه علم نظري حينما يحدثك عن هذه الهبة الإلهية المعجزة المخيفة التي

هى أنت أنت والى هى شخصك والى يترتب على قدر ما تحسن ، أو تسمى
فى استعمالها سمائك أو شقاوتك هلك ، أو سقوطك
هذه الهبة المعجزة الخيفة هى إرادتك ، وإرادتك الحرة التى تستطيع
دائماً أن تقرر ما يعجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة .

لأنه علم نظرى حين يحدثك عن هذا وعن غير هذا من مسائل علم
الأخلاق التى غايتها الحق ، والمقصود منها إنما هو حصول رأى فقط .

ولأنه علم عملى حين يطلب منك أن تضبط سيرك على مقتضى قواعده
ومقاييسه ، وأن تنقح طبائعك ، وتخلصها مما يفسدها ويحطها عن
مرتبة الإنسانية .

وإذا كان علم الأخلاق علماً نظرياً حين يطلب منك أن تدرس ، فإنه
علم عملى حين يطلب منك أن تعمل لخير نفسك ووطنك والناس أجمعين .
وعلى ذلك فهو علم من جهة معرفة القواعد وفن من جهة تطبيقها .

وإذا كنت تعلم أنه لا يكفى لأجل أن تقود سيارة ، أو تركب بحراً
أن تحفظ كتاباً أو كتباً فى كيف تقود السيارة أو تركب البحر ، بل لابد مع
ذلك من التمرين العملى على القيادة والسباحة ، وإلا صدمت الناس بسيارتك
وغرقت فى لحج الماء .

إذا كنت تعلم ذلك فلا يكفى أبداً أن تحفظ ألف كتاب وكتاب فى علم
الأخلاق لتكون على خلق عظيم بل لابد مع ذلك من رياضة نفسك على
الفضيلة حتى تكون لها صديقاً ، وبمهداً وفيها . فالفضيلة عملية محلها النفس

التي تصدر عنها الأفعال لا الفهم التي تصدر منه الأقوال .

إن علم الأخلاق من جهة أنه فن فالإجماع منعقد على فائدته ، ومن جهة أنه علم فهناك بعض الشك في فائدته . ومهما يكن من شك في فائدة علم الأخلاق فقد كان « أرسطو » أحد أساتذته الأكرمين يعلم الاسكندر هذا العلم مدرّساً في « التقاليد الاجتماعية وفي الطبع الإنساني » وإذا كان علم الأخلاق ضرورياً للعقل البشري فإن شفاء الجمعية الإنسانية من أمراضها النفسية أنبل أغراضه .

الغاية من علم الأخلاق :

الغاية والفائدة والمنفعة بمعنى واحد . فهل هناك من غاية ، أو فائدة ، أو منفعة ترجى من علم الأخلاق ؟

تتحقق الغاية من علم الأخلاق إذا كانت الأخلاق قابلة للتبديل والتغيير . فهل تتغير الأخلاق ، أو لا تتغير ؟ وإذا كانت تتغير فما هو الطريق إلى تغييرها ؟ أهو العلم أم هو شيء آخر غير العلم ؟

خلاف في هذه المسألة . قوم يقولون : إن الخلق لا يتغير غير أنه يجب المداركة قبل تمكنه من صاحبه . وحيثهم في ذلك أن الأخلاق تابعة للمزاج والمزاج لا يتغير ، وأن السيرة تقابل الصورة وهي لا تتغير فكذلك السيرة . أى أنهم يستدلون على أن الخلق لا يتغير بدليلين اثنين :

١ - إن الخلق صورة الباطن كما أن الخلق صورة الظاهر ، والخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح الباطن يجرى هذا المجرى .

٢ - والثاني أنهم قالوا : حسن الخلق يكون بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي ، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة .

هكذا يقول الغزالي في تلخيص حجج الذين يقولون : إن الأخلاق

لا تتغير

وآخرون يقولون: بأنها تتغير . وعلى ذلك تتحقق الفائدة من علم الأخلاق .
وزعيم القائلين بهذا الرأي الأخير « سقراط » مؤسس علم الأخلاق
فكان يعتقد أن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير
وأُسُ الصلاح ، وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان ، فإذا عمل الإنسان
الشر ، فما ذاك إلا لأنه يجهل طريق الخير ، فالعالم — في عرف سقراط —
يستحيل أن يكون سيئ الأخلاق ردىء الطباع . فالفضيلة في نظره هي
العلم ، ومعرفة الخير كافية لإتيانه .

وعلى ذلك فما يقع الإنسان فيه من الإثم إنما يكون ناشئاً عن خطأ
في الموازنة بين اللذة الحاضرة وبين الآلام المستقبلية ، أو يكون ناشئاً عن
جهل بطبائع الأشياء .

هكذا يقرر « سقراط » واضح علم الأخلاق . فالأخلاق عنده تتغير
والطريق إلى تغييرها هو العلم : طريق الدليل القاطع والحجة الدامغة .

والمبدأ الأول الذى يقرره سقراط — وقد أيده بالمثل الفعلى فى عدم
هروبه من السجن — « هو أنه لا ينبغي البتة إتيان الشر بأية حجة كانت »
ومما يؤثر عنه فى وصف الرجل الذى يتمسك بالفضيلة أبداً قوله : « لو أن
لساناً صادقاً أمر جبلاً أن يزول لزال » .

ويرى أنه متى كسبت النفس السيئة بعامل الجهل أو الضعف فأول
ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذى أصابها ، والذى يمكن
أن تشفى منه .

وعلاج الخطيئة إنما هو العقاب . فلا ينبغي للمذنب أن يتذمر من

العقاب يصيبه إما بيد الله أو بيد الناس . بل يجب عليه أن يغتبط بالبلاء الذى يكفر عنه سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلماً .

إنه يقول : إن العقاب ضرب من الطب المعنوى ، وشأن المذنب الذى يحاول اتقائه شأن المريض الذى قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذى يعيد إليه الصحة بالحديد والنار .

وليس هنا مكان الاسترسال فى مناقشة هذه المبادئ فإنما قد أتينا بها لاستنارة الطالب بمبادئ سقراط فى الأخلاق بمناسبة عرض مذهبه فى أن الأخلاق تتغير . والطريق إلى تغييرها هو العلم .

ويتابع « سقراط » على هذا رأى « هربرت الألمانى »^(١) فإنه ينادى بأن التعليم وحده كفيل بهذيب الأمة وتربيتها ، وكان يقول : « الغاية القصوى من التعليم إنما هى اكتساب الفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق » .

و « هربرت » هذا لا يقول مطلقاً بالاستعداد الفطرى بل يقول : « إن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » .

وعلى هذا تكون القوة المسيطرة على هذا العالم المثيرة لحوادثه هى العقل ، فإذا أردنا أن نهذب النفوس ونحسن الأخلاق فطريق ذلك هو العلم والعلم وحده .

١ — هو « جان فردريك هربرت الألمانى » (١٧٧٢ - ١٨٤١) ولد فى مدينة (إلمبورج) . خلف (كانت) فى كلية (كونجسبرغ) إثر وفاته . قال لتلاميذه فى أول درس ألقاه عليهم : « إني أسيّد بأن أخلف أكبر فيلسوف فى العالم فى دروسه ولن يقلل من احتراعى له وإعجابى به أنى أخالفه فى الرأى والمذهب »

وعن يقول بذلك أيضاً : « لينينز » الالماني فقد كان يقول : « سلمني زمام التربية والتعليم وأنا كفيل بأن أغير وجه أوروبا قبل قرن من الزمان » ولكن قامت طائفة من العلماء وثارت على هذا الرأي - رأى سقراط ومن تبعه - وأنكرت تأثير العلم فيما يصدر عن الإنسان من الأعمال ، فقال الفيلسوف الفرنسي « بسكال ^(١) » : « إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق » يريد أن يقول : إن المثل الأعلى للأخلاق العظيمة في واد ، وعلم الأخلاق الموضوع في واد آخر .

ثم جاء من بعده رجل قوى الحججة هو الفيلسوف الانجليزي « هربرت سبنسر ^(٢) » فأنكر على العلم كل سيطرة تهذيبية وكل تأثير في إصلاح النفوس ونادى أن لا علاقة بين العلم والأخلاق وقال : « إن حماس العلماء والخلقيين وتعصبهم للعلم ونشر التعليم بين طبقات الأمة ابتغاء إصلاح أخلاقها من وراء القراءة والكتب والمدارس هو بدعة من بدع هذا الجيل وسخافة من سخافات أهل هذا العصر .

وكان يقول : « كيف يرجي من العلم تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم واتسعت مداركهم أفراداً لا أخلاق لهم ، ووعاظاً يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وسياسيين عظماء

(١) - (١٦٢٣ - ١٦٦٢)

(٢) - (١٨٢٠ - ١٩٠٣) كان والده مدرساً وعمه قسيساً اهتم منذ صغره بالعلوم الطبيعية والمسائل السياسية مفضلاً إياها على دراسة اللغات البائدة فلسفته تدور حول نظرية النشوء والارتقاء .

قلوبهم كالخجارة أو أشد قسوة يعملون على خراب الدنيا وإلحاق أكبر الشرور بالشروع الإنسانى ، وأطباء من أكبر العلماء يدسون السم لمريضهم !!
فما أغنى العلم ولا نهى التعليم .

ثم يقول : « وبجانب هؤلاء نجد من الجهلاء والأمينين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف وعلو الهمة .

رئيس خسر « سبنسر » من الخلقين الذين يعتمدون في إثبات قوة العلم التهذيبية على الإحصاءات الدالة على متانة الاتصال والارتباط بين الجمل والأجرام وأنهما متلازمان تلازم العلة والمعلول والسبب والمسبب .

ويقول : « إن مثل من يقدم هذا برهاناً على تأثير العلم في الأخلاق كمثل من يقول : إن السبب في ارتكاب الجرائم عدم نظافة الجسم وورثة الملبس لأن السجون مملأى بهؤلاء .

وإذا كان « هربرت » الألمانى الذى ينادى بالصلة بين العلم والأخلاق لا يقول مطلقاً بالاستعداد الفطرى بل يقول :

« إن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » فإن « هربرت » الانجليزى الذى ينادى بقطع الصلة بين العلم والأخلاق يبنى رأيه هذا على نظريته فى الوراثة ، ومضمونها :

« أن كل عادة متى تقوت تصبح طبيعة . أعنى أنها تتغلغل فى تكوين الإنسان وتصبح آلية تتحرك من تلقاء ذاتها ، وهذه الاستعدادات العضوية تنتقل بالوراثة بمعنى أننا حال ولادتنا توجد فىنا اختبارات الأجيال التى سبقتنا ، فالوراثة - فى نظر « سبنسر » - هى أصل المعارف العامة الضرورية

فهي عامة لأن الإنسان لا يمكنه أن يفلت من أن يرث بنى نوعه ، وهي
ضرورية لأن الميراث محتم على الفرد كشيء واقع ^(١) .

وما دام الميراث محتما على الفرد كشيء واقع فمعنى هذا أن الناس يولدون
ومعهم عاداتهم يرثونها عن آبائهم فترافقهم كشيخ مظلم ، أو غير مظلم طوال
حياتهم حتى القبر نفسه .

ولعل هذا هو الذي دفع « مكسيم جوركي » ^(٢) إلى أن يقول : « في كتابتي
« الأم » : « في طفولتي كنت أخاف من جميع الناس ، ثم عند ما شيت كنت
أكرههم جميعا ، أبغض البعض لدنائتهم ، والآخرين دون أن أدري لماذا ؟
هكذا لمجرد البغض . أما الآن فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه . لعل
السبب في ذلك أنني أشفق على الناس . لقد رق قلبي نوعا عند ما تحققت أن
الناس جميعا ليسوا مسئولين عن حقارتهم ودنائتهم »

ليسوا مسئولين عن حقارتهم ودنائتهم . لماذا ؟ لأنهم ليس لهم في ذلك
اختيار ما دام الميراث محتما على الفرد كشيء واقع .

وهذا المبدأ ، أو هذا الرأي خطر على الأديان ، وعلى الشرائع يهدمها
كلها رأساً على عقب . ينفي حكمة إرسال الرسل ويترك الناس هملا تستعبدهم
الورثة ، وتستذلهم الشهوات .

حقاً إنك لتعجب من واقع الأمر على مسرح هذه الحياة . فكم من

(١) تاريخ الفلسفة لحنا أسعد ص ٣٤٢ ، ٣٤٣

(٢) أفضل وريث للادب الروسي في القرن التاسع عشر .

العلماء يبغض بعضهم بعضاً ، ويعيشون جميعاً في الطمع ، والحسد ، والغيرة ،
ويبتهجون عندما ينال بعضهم الأذى ، فإذا أخذت تسكشف عن حقيقتهم
للحق وفي سبيل الحق اتموكم ، وأبغضوكم ، ودمروكم .

وكم من جاهل لا يعرف من العلم ولا عن العلم شيئاً يشعر بالقربة
الروحانية مع أخيه الإنسان فتراه يعطف عليه ، ويساعده في الشدائد ،
ويواسيه في الملمات ، وتراه في سلوكه لا يعرف إلا الحق والعدل ، بل تراه
يضحى بماله ، ولذته ، وسعادته للخير ، وفي سبيل الخير .

حقاً إنك لتعجب من هذا الذي تراه كأن شيئاً أقوى من العلم ومن
الفلسفة يختبئ وراء هذه القلوب فيثير فيها إحساساً صاعداً يستحق من رسل
الإنسانية كل إعجاب وتقدير لهؤلاء الذين يزرعون الحقيقة بين الناس
وهم بعد لم يعلموا من علم الناس شيئاً لا في قليل ولا في كثير .

وكأن شيئاً أقوى من العلم ومن الفلسفة يختبئ وراء تلك العقول العالمة
فيثير فيها إحساساً نازلاً يستحق من رسل الإنسانية كل مقت وكل طرد
لقوم يضاعفون من ذعر الناس ومن خوف الناس في هذه الحياة ، وهم
حرب على السلام في هذا العالم .

ولكن مع ذلك فإن المسألة كما ينبغى أن تفهمها هي أن الأخلاق تتغير
وأن الفضيلة ميسورة للذي يجمع بين عقل مستنير وشهوات هادئة .
وإلا لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال كتابنا العزيز : «وذكر
فأن الذكرى تنفع المؤمنين» ولما قال صلوات الله عليه : «حسنوا أخلاقكم» .
وكيف ينكر هذا في حق الآدمي — كما يقول الغزالي — وتغيير خلق

الهيمة يمكن إذ ينقل البازي من الاستيحاء إلى الأنس ، والكلب من شر الأكل إلى التأدب ، والإمساك ، والتخليه . والفرس من الجماع إلى السلامة والانقياد . وكل ذلك تغيير للأخلاق .

وإذا كان « سبنسر » يقطع الصلة بين العلم والأخلاق فما الطريق عنده لتهديب النفس وتحسين الأخلاق ؟

الطريق عنده هو تربية الوجدان والميول لأن الناس في أعمالهم — عنده — يحكمون عواطفهم ، وينقادون لأهوائهم دون أن يستشيروا حكمتهم ، ويصغوا إلى نداء عقولهم .

وهذا هو أيضاً رأى الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » ، إذ كان يقول : « العالم تحكمه العواطف لا الأفكار » .

وليس معنى أن يقطع « سبنسر » ومن يرى رأيه الصلة بين العلم والأخلاق أنه ينكر أثر العلم في إضاءة الأذهان وتنمية العقول . إنما المعنى أنهم يقولون : « ابحثوا عن طرق أخرى غير طريق العلم للقيام بتهديب الأخلاق » .

وعلى كل فليس علم الأخلاق أكثر عقماً من سائر العلوم الأخرى